عن قوة المساحات الصغيرة

ما هي الثقافة التي يمارسها أو ينتجها الشباب في فلسطين المحتلة؟ بعيداً عن الثقافة السائدة، التي تراوح بين الثقافة التقليدية والاستهلاك، سأتعرض لإحدى التجارب «الجانبية» التي ظهرت في القدس المحتلة في السنوات الأخيرة، في مجال الإنتاج الثقافي. قد تكون «رؤى جانبية» (٢٠٠٦-٢٠٠٨) الجريدة/المجلة الوحيدة التي اهتمت بتجارب الشباب في الفنون البصرية والكتابة، التي ظهرت في القدس منذ فترة طويلة. إذ لا توجد صحيفة يومية أو مجلة فلسطينية اليوم مخصصة للفنون لدى الشباب، فجميع المطبوعات الفلسطينية تقريباً تتناول إما مواضيعَ سياسية واجتماعية، أو منوّعات مع حصّة كبيرة للمادة الإعلانية. وهنا كانت أهمية «رؤى جانبية»، كمطبوعة تتسم بالتجريب طرحت مواضيع «جانبية» وجد فيها المتلقّون، الجامعيون والشباب بشكل خاص، أسئلتهم الفردية والجماعية المهمشة. الجريدة من إنتاج شبان وصبايا فلسطينيين تطوعوا بالمواد المكتوبة والتصميم وتوزيع خمسة آلاف نسخة مجاناً في المدن والبلدات الفلسطينية كل شهر، بدعم من مؤسسة فلسطينية أهلية.

مصطفى مصطفى(*)

(*) كاتب وصحافي، القدس. له نشاطات مسرحية وثقافية مختلفة في فلسطين، وستصدر له رواية أواخر هذا العام.

لقد اهتمت «رؤى جانبية» بالفن التشكيلي، فأتاحت لكثير من الشباب في مجال التشكيل والتصوير الفوتوغرافي إمكانية نشر صورهم بشكل احترافي. إذ كان يكتفي هؤلاء في معظم الأحيان بنشر هذه الصور على «بلوغاتهم» أو صفحاتهم الخاصة على «الفيس بوك»، بسبب عدم اكتراث أو قلة وعي المجلات والصحف الموجودة بقوة إيحاء الصورة وإكمالها للنص، رغم أن إنتاج الشباب في مجالات الفن الفوتوغرافي والفيديو آخذٌ في الازدياد. كما أتاحت أيضاً للتشكيليين الفلسطينيين، في الوطن أو المنفى، عرض أعمالهم التشكيلية على جمهورٍ أوسع، لم يكونوا ليستطيعوا الوصول إليه من خلال المجلات المتخصصة بالفن التشكيلي.

تنوّعت مواضيع المواد المكتوبة من قبل الشباب في «رؤى جانبية»، وقد ضمت كتاباتٍ «متمردة»، حتى شكلياً. فالإيميل و«التشات» أو لغة التخاطب الافتراضية التي تميزها اللحظية والاختصار، تلك اللغة «الدِسبوزبل» المستعملة لمرة واحدة تصيرُ إلى حواراتٍ وأسئلةٍ وجودية من خلال «المسنجر»، وقصص أو يوميات كتبت في إيميل دون قصدية من الكاتب. والمصمم لا يعيد طباعة هذه الحوارات أو القصص في برنامج «الورد»، بل يأخذها كما هي «Print Screen» ويلصقها في صفحة الجريدة، فتجد إيميلاً أو حواراً عبر «شباكِ المسنجر» إلى جانبِ مقالاتٍ صحفية ونقدية، وقصائد نثر، وأخبار لفعالياتٍ ثقافية وحوارات. وإلى جانب اهتمام الجريدة بالصورة، لم تتنازل عن مستوى ونوع الكتابة لحساب مواد ركيكة وجهوية بحجة أنها تطرح «قضايا»، ولكنها تعبر عن القضايا على طريقتها. فالمواد المنشورة من الشبان والصبايا نجد فيها همّ تحرير فلسطين، والاشتباك العنيف مع الاحتلال على الحواجز وفي الحياة اليومية، من خلال قصة أو صورة. فنحن نرى فرقة «هيب–هوب» في «شارع صلاح الدين» في القدس أمام ناظري جنود الاحتلال، حيث الغناء شكل من أشكال التحدي للمحتل. كل ذلك، جعل «رؤى جانبية» إحدى المنشورات المطلوبة من قبل الشبان والصبايا، المهتمين بصناعة الأفلام والموسيقى البديلة والأعمال المسرحية والكتابات التي تقدّم رؤية غير نمطية للواقع. الشباب الذين يتعذر على كثير منهم الحصول على الكتب الصادرة في العالم العربي، لتقييد «إسرائيل» لاستيراد الكتب، لا زالوا يستطيعون الحصول على ألبومات الموسيقى البديلة والأفلام السينمائية، من خلال تحميلها عن طريق الإنترنت.

عملت «رؤى جانبية» على تخليص مفردة «الشباب» من مركبات النقص التي

تُلصق عادةً بإنتاجهم الثقافي ونشاطهم ـ كما يذكر رئيس تحريرها الشاعر نجوان درويش في افتتاحية أحد الأعداد بعنوان «قوة المساحات الصغيرة». وربما ينطوي تغيير الجريدة لاسمها من «رؤى شبابية» إلى «رؤى جانبية» في أعدادها الأخيرة على إيحاءٍ مهمّ، بأن كلّ ما هو هامشي أو جانبي هو بالضرورة شبابي وحيوي ومتمرد.

وثمة في المقابل «مجلات شبابية» تصدرها مؤسسات أهلية محلية، تكون مكرّسة لأخبار تلك المؤسسة ومجاملاتها، بجانب مواد متواضعة وترفيهية كحال كثير من المجلات «غير الشبابية». ويبقى استهلاك هذا النوع من المجلات ضيقاً ولا تحقق نسبة قراءة تُذكر.

تجربة «رؤى جانبية» توسّعت عربياً مع مجلة «من وإلى» (توزع قرابة ٢٥ ألف نسخة) والتي يحررها أيضاً نجوان درويش ورفاقه من القدس المحتلة بالتوجهات الجانبية ذاتها، وشارك في أعدادها الصادرة حتى الآن عشرات الشباب من مختلف البلدان العربية. هي مجلة مقاوِمة على طريقتها، تَصدر تحت الاحتلال وتجذب انتباه الشباب في عدة بلدان عربية، كلبنان وسوريا والأردن ومصر وبلدان المغرب. يبدو أن الشباب العربي، الذي يواجه أكثر من صيغة للاحتلال، لا يجد أمامه سوى جدران عالية يتسلقها بِرهانٍ محموم على «قوة المساحات الصغيرة».

القدس المحتلة، شباط (فبراير) ٢٠١٠.